المحاضرة الأولى: مفهوم علم الاجتماع

تمهيد:

يشكل علم الاجتماع أحد الروافد المعرفية المنضوية لحقل العلوم الاجتماعية، والذي استطاع من خلال مسيرة طويلة نسبيا، أن يحوز أهمية كبيرة في مجال دراسة الظواهر الاجتماعية والسلوك الإنساني اللذان تشهدهما المجتمعات الإنسانية المختلفة، وذلك بفضل النقلة النوعية التي أحدثها في مجالات اهتمام هذا الحقل والتي صنعت أهميته فيما بعد.

مسيرة هذا التخصص، اصطبغت منذ الوهلة الأولى لتشكله بصبغة خاصة، صنعت تميزه عن نظرائها من التخصصات الاجتماعية والإنسانية، نتلمسها بجلاء في جانب المسميات المختلفة التي تم إطلاقها عليه ابتداء من قبل منسبيه، مرورا بالاشتقاقات الاصطلاحية التي حاولت تعريفه قديما وحديثا، وصولا إلى العوامل المتدخلة في تشكله، وانتهاء ببيان أهميته في حياة المجتمعات المعاصرة، وهي التفاصيل التي ستشكل مضامين هذه المحاضرة والتي سنقف عليها في العرض الآتي.

أولا. تسمية علم الاجتماع: حفل علم الاجتماع بالعديد من التسميات التي أطلقت عليه، والتي يأتي في مقدمتها "علم العمران البشري" الذي سنه **ابن خلدون** وضمنه تفاصيل عمله الشهير "المقدمة"، ومن بعده مصطلح "الفيزياء الاجتماعية" والذي تم استخدامه لأول مرة من قبل عالم الاجتماع الفرنسي **أوجست كونت (Auguste Comte)**، والذي عكس تأثره البالغ بحقل العلوم الطبيعية، ورغبته في الوصول إلى نفس مستوى العلمية والدقة التي بلغتها هذه الأخيرة في مجال دراسة قضايا المجتمع وظواهره. قبل أن يعود في سنة 1838 ليطلق تسميته الجديدة "السوسيولوجيا" **La Sociologie** على هذا الحقل الناشئ. ليتبعه بعد ذلك المفكر الانجليزي "جون ستيوارت ميل" والذي استعمل ذات التسمية سنة 1843 في كتابه "علم المنطق".

هذه التسمية شاعت في سائر الأوساط العلمية واستقرت إلى يومنا هذا، وذلك رغم بعض المحاولات التي بذلت في هذا الإطار بغض إدخال تغيير عليها، وذلك على غرار ما بادر به أحد أركان الفكر السوسيولوجي الكلاسيكي **كارل ماركس**، والذي حاول استبدالها بمسمى "علم المجتمع"، ثم تبع ذلك **جيدنجز Giddings** الذي وافق على تسمية **كونت** مع تعديلها ليكون "علم الاجتماع الاستقرائي"، وسار العالم الفرنسي **رينيه منيه** على نفس طريقة، فعدل التسمية التي سنها **كونت**، ليكون "علم الاجتماع المقارن".

التفاصيل السابقة، تظهر لنا بجلاء وجود نوع من الخلاف أعترى تسمية هذا العلم الناشئ، ومرد ذلك أن كل تسمية اطلقت اعتمدت على تصور كل عالم من العلماء لموضوع العلم من ناحية.

أما فيما يتعلق بأصول الاشتقاق اللغوي لهذه الكلمة الفرنسية، فهي تتكون من قسمين أساسيين، جرى اشتقاق الجزء الأول منها وهو **Socio** من الكلمة اللاتينية **Societas** والتي تعني الجماعة أو المجتمع وما شابه ذلك من صور الاجتماع الإنساني، أما القسم الثاني (**Logie**)، فتم اشتقاقه من الكلمة اليونانية القديمة **Logos**، والتي تعني علم أو معرفة أو دراسة، وبذلك يكون المعنى اللغوي الظاهر للمصطلح هو علم المجتمعات البشرية، أو علم دراسة المجتمع الإنساني.

ثانيا. تعريف علم الاجتماع: شكل السعي إلى بلورة تصور واضح لعلم الاجتماع، هدفا للكثير من علماء الاجتماع الأولين منهم والمتأخرين، والذين قدموا محاولات متعددة في هذا الإطار، عكست حرصهم الكبير على التوصل إلى صياغة تعريف محدد لهذا العلم، بشكل يسهم في بلورة أسس مشتركة بينهم، ويسمح بتقريب وجهات النظر التي قد تتصارع في نطاق هذا العلم، لكنها لم تكلل بالتوصل إلى ضبط تعريف مجمع عليها لهذا العلم الجديد، كما سنتبين تفاصيله في العرض الآتي.

1) التعريفات الكلاسيكية: عرف **أوجست كونت** (**Auguste Comte**) علم الاجتماع بأنه: "العلم الذي يهتم بدراسة البناء الاجتماعي* وما به من مؤسسات". أما **إميل دوركايم** (**Emile Durkheim**) فيرى أن علم الاجتماع يهتم "بدراسة الظواهر الاجتماعية وأنماط الحياة والمشكلات الاجتماعية".

أما **هربرت سبنسر** والذي يعد شخصية مؤسسة لعلم الاجتماع، فيرى أنه " العلم الذي يصف ويفسر نشأة وتطور النظم الاجتماعية مثل الأسرة، وأنه يقوم بعمل مقارنات متعددة بين المجتمعات على اختلاف أنواعها لمعرفة تطورها مثل: مجتمعات البدائية – الريفية– البدوية – الحضرية. في حين يذهب **ماكس فيبر** إلى تعريفه بأنه "العلم الذي يحاول الوصول إلى فهم تفسيري للفعل الاجتماعي" من أجل الوصول إلى تفسير علمي لمجرى هذا الفعل ونتائجه.

2) التعريفات الحديثة: ينظر **وليام أوجبرن** إلى علم الاجتماع بأنه: " الدراسة العلمية للحياة الاجتماعية"، في حين يعرفه **روبرت ماكيفر** بأنه: "دراسة العلاقات الاجتماعية التي يتكون من نسيجها المجتمع". بينما يرى **جونسون** أن علم الاجتماع هو "العلم الذي يتناول بالدراسة الجماعات الاجتماعية من حيث صور أو نماذج تنظيمها الداخلي".

بينما يرى **جيمس فاندر زاندن** في كتابه المنشور سنة 1979، أن علم الاجتماع يدرس "التفاعل الإنساني الذي يتجلى في التأثير المتبادل الذي يمارسه الأفراد في علاقتهم المتبادلة، التأثير في المشاعر والاتجاهات والأفعال".

ويمكن أن نضيف إلى هذه العينة من التعريفات، قائمة أخرى شاعت في الكتابات المختلفة سواء الغربية منها أو العربية. ولعل المبرر الكامن وراء عدم توفق المختصين في علم الاجتماع إلى صياغة تعريف واحد معبر عن تصور حدود هذا التخصص والمجالات التي يعنى بها متعددة. أبرزها:

*. يقصد به الجماعات الاجتماعية المستمرة والمكونة للبيئة الاجتماعية المحيطة بنا كالأسرة والمدرسة والتي وجدت قبل الفرد.

- تعدد وجهات النظر الباحثين لموضوع هذا العلم ذاته.
- المتغيرات المجتمعية التي كان يعيشها كل واحد من المؤسسين في مجتمعه.
- تعدد الحقيقة الاجتماعية ذاتها ونسبيتها في الزمان والمكان.

ثالثا. جدلية الأب المؤسس لعلم الاجتماع: الحديث عن نشأة علم الاجتماع يجرنا إلى التساؤل عن هوية الشخصية التأسيسية لهذا الحقل، وهنا تتراوح الروايات بين شخصيتين مركزيتين، الأولى وهي شخصية العلامة **ابن خلدون** (1332-1406)، والثانية هي شخصية العالم الفرنسي **أوجست كونت** (1798-1857). حيث يجزم الكثير من الدارسين لهذا الحقل، بأن **ابن خلدون** يعد أول عالم يقرر صراحة وبوضوح نشأة هذا العلم الجديد، كونه أول من استكمل الخصائص المنطقية التي يجب توافرها في كل علم من حيث الموضوع والمنهج والأغراض التي يرمي إليها، لا كما يدعي الفرنسيون الذين ينسبون فضل ذلك إلى **أوجست كونت**، ولا كما يدعي الايطاليون الذين ينسبون فضل ذلك إلى **فيكو** (1668-1744).

وتظل محاولة التوصل إلى اجابة جازمة بخصوص هذا الموضوع دون طائل منذ عقود، وأن ما تم من اجتهادات لا يرقى إلى صيغة الجزم بأحقية أحدهما على الأخر، أكثر من كونه ينغمس في الكثير من الأحيان في وحل الايديولوجيا والتعصب الفكري، إلا أنه لا يثنينا عن القول بأن جهود **ابن خلدون** وبصمته في هذا المجال لا يمكن القفز عليها أو التغاضي عنها، إلا أنه لم يؤسس مع ذلك ونظرا لظروف عصره من ناحية، وطبيعة حله وترحله لأجيال من الطلبة والأتباع الذين يتناقلون علمه واهتماماته ويزيدون عليها، ما جعلها تظل عمل فردي يراوح مكانه. وبخلاف ذلك أوجست كونت، والذي نجح في لفت أنظار الكثير من المفكرين الأخرين إلى هذا الحقل البحثي، مستفيدا من معطيات عصره المتسمة بكثرة وسرعة التحولات المجتمعية من جهة، وما قابلها من تعدد الاسهامات الفكرية التي تمت في هذا الباب وتنوعها من جهة أخرى، ما جعل فكرة الإعلان عن ميلاد حقل السوسيولوجيا أكثر نضجا واستيعابا في الأوساط العلمية والأكاديمية آنذاك، وتوافد الدارسين عليها يتنامى تدريجيا، وهو ما أفضى إلى بروز أجيال لاحقة تأخذ بزمام هذا التخصص وتمضي به اسهامات متتالية .

رابعا. أهمية علم الاجتماع: الجدارة والمكانة التي يتمتع بها علم الاجتماع اليوم في حقل الدراسات العلمية، يستمدها من أهمية التفاصيل والمسائل التي يعنى بها، والتي تندرج في صميم تفاصيل الحياة اليومية للجماعات الإنسانية المختلفة، والتي يمكن لنا ايجازها في النقاط الأتية:

1) دراسة المشكلات الاجتماعية: تشكل مشكلات التفكك الأسري، الانتحار، الانحراف الاجتماعي، الفقر، أطفال الشوارع، البطالة.. إلخ، والتي تعيش على وقعها الكثير من المجتمعات الإنسانية، مسرح مثير لاهتمام المختصين في علم الاجتماع، والذين يسعون إلى دراسة هذه المشكلات ورصد أشكال ومسارات تطورها، وتشخيص أسباب نشوئها وتداعياتها على الواقع الاجتماعي بمختلف مؤسساته.. إلخ.

2) رصد جوانب التغير الذي تشهده المجتمعات الإنسانية المعاصرة: يعد التغير أحد السنن الكونية التي تطبع مختلف جوانب حياة المجتمعات الإنسانية منذ بدأ الخليقة، محدثا بذلك تحول في قيم وسلوكيات الأفراد والجماعات، الأمر الذي يجعل عملية رصد مجرى هذا التغير وفهمه، وإدراك الانعكاسات الناجمة عنه، ومعرفة المتغيرات الظاهرة والمستترة المتحكمة فيه.. إلخ، مسألة في غاية الأهمية. الأمر الذي جعل العديد من العلماء الاجتماع يعتبرون أن التغير هو الموضوع الأساسي لهذا الاختصاص، وهو ما يستدعي حسبهم ضرورة الانتباه له والإحاطة به. كونه يسمح لنا بزيادة معارفنا بالعالم الذي نعيش فيه.

3) المشاركة في إعداد السياسات وبرامج التنمية المختلفة: تمثل الخطط والبرامج التنموية محور اهتمام رئيسي من قبل الحكومات والدول في شتى أرجاء المعمورة والساعية إلى ارساء دعائم تنمية حقيقية ومستدامة في مجتمعاتها، إلا أن اللافت للنظر هو أن الكثير من هذه الخطط تجانب الصواب جراء عدم انسجامها مع متطلبات الواقع الاجتماعي، الأمر الذي يجعلها تفشل في تحقيق الأهداف المرجو من ورائها، الأمر الذي وسع من هامش تدخل علم الاجتماع في تنوير من في أيديهم السلطة، ومساعدتهم على طرح الأسئلة المناسبة واختيار المقاربات الناجحة.

4) استخلاص القوانين الاجتماعية: الأهمية الأكبر التي يسعى علم الاجتماع على غرار غيره من العلوم الاجتماعية الأخرى التوصل إليها، وهي محاولة التوصل إلى استنتاج القوانين التي تحكم جوانب الحياة الاجتماعية وتنظم تفاصيلها.

هذه الأهمية، شكلت طموح لدى الكثير من رواد السوسيولوجيا، والذين سعوا إلى التعاطي مع الظواهر الاجتماعية بنفس المنظار الذي تدرس به العلوم الطبيعية، أملين من وراء ذلك التوصل إلى فهم حقيقي للواقع الاجتماعي، وفهم القوى والقوانين التي تتحكم في تفاصيل وشؤون التغير فيه.

خامسا. أسباب نشأة علم الاجتماع: بروز الحاجة إلى علم الاجتماع كتخصص معرفي، ووصوله إلى انتزاع مكانة بين باقي تخصصات المعرفة الإنسانية والاجتماعية، كان في تقديرنا المتواضع نتاج أربعة (04) عوامل أساسية، نوجزها فيما يلي:

1) العوامل الفكرية: ويندرج تحتها بشكل خاص "عصر التنوير"، حيث أدت أراء الفلاسفة والمفكرين التي ظهرت بصورة خاصة خلال عصر الاصلاح والتنوير، إلى نقد أساليب التفكير التي كانت سائدة خلال العصور الوسطى، ولا سيما اتجاه هذه الأساليب إلى الإيمان بالغيبيات والتفسير اللاهوتي والميتافيزيقي، والذي يبحث فيما وراء الطبيعة دون ابداء الأسباب الفعلية.

هذا العمل فتح الباب على مصراعيه أمام العقل الانساني ليتحرر من قيود الماضي، وينطلق في الابداع والتفكير، فبدأت الكتابات المتنوعة في الظهور، كما تكونت الاتجاهات وايديولوجيات أكثر طموحا ورغبة في

التغيير واكتساب المزيد من الحرية الفردية والمساواة في العمل.. كما كان لها بالغ الأثر في ظهور الوعي الطبقي وبروز المذاهب الفكرية المفسرة للظواهر الاجتماعية على غرار مذهب العقليين ومذهب التجريبيين.

2) العامل السياسي: مهدت العوامل السياسية كغيرها من العوامل الفكرية والاقتصادية لقيام علم الاجتماع وظهوره، وأبرز عامل يمكن الإشارة إليه في هذا الإطار هو الثورة الفرنسية والتي يعتبر قيامها في سنة 1789 من أهم الأحداث السياسية التي ظهرت خلال العصر الحديث بعد الثورة الصناعية. وهي الثورة التي لم تحدث من فراغ بقدر ما أثرت مجموعة أراء مفكري وفلاسفة عصر التنوير من التمهيد للقيام بهذه الثورة، وتغير النسق الفكري الذي ارتبط بنظريات الحق الطبيعي التي أعطيت بعد ذلك للحكام السياسيين. ولأن طبيعة الثورة الفرنسية لم تكن سلمية بقدر ما كانت ثورة دموية، وشهدت حرب عقائدية وفكرية واجتماعية متعارضة، ولهذا ظهر علم الاجتماع كمطلب ضروري كغيره من العلوم الاجتماعية التي تهتم بدراسة المشكلات الاجتماعية والسياسية والاقتصادية التي ظهرت في المجتمع الصناعي الحديث.

3) العامل الاقتصادي: كما لعبت العوامل الاقتصادية دورا بارزا في ظهور علم الاجتماع وتطوره، وأبرز هذه العوامل الاقتصادية على الإطلاق هو قيام الثورة الصناعية في بريطانيا خلال النصف الثاني من القرن الثامن (18) عشر ميلادي، والتي ما لبثت أن انتقلت بعد ذلك إلى العديد من الدول الأوربية المجاورة، ومن ثمة إلى بقية دول العالم الحديث بعد ذلك،

هذه الثورة، أفضت إلى حدوث تغيرات جذرية في الكثير من جوانب الحياة الاقتصادية والاجتماعية لم تكن معروفة من قبل، مست طبيعة الانتاج، ورأس المال، والعمل ونظام الملكية، والتقدم التكنولوجي، وظهور طبقة العمال، والطبقة البرجوازية، ونمو الرأسمالية من المدن إلى الأرياف، وظهور مشكلات التحضر، وتغير أساليب المعيشة.. إلخ، والتي أدت بدورها إلى تغيرات عميقة طالت نمط البناءات والنظم الاجتماعية، على غرار التغير الذي طرا على النظام العائلي أو القبلي الذي كان سائدا في العصور الإقطاعية.

4) التغير التكنولوجي: لعب التطور التكنولوجي الحاصل في المجتمعات الغربية بعد الثورة الصناعية، دورا حاسما في تسريع وتعميق وتيرة التغير الاجتماعي الذي كانت تشهده المجتمعات الغربية أولا، قبل أن تمتد أثاره لاحقا إلى الكثير من الدول النامية فيما بعد، حيث قاد التوسع في استخدام التطورات التكنولوجية المتسارعة في ميادين النقل والاتصال، إلى ازدياد تأثير هذا العامل في مختلف جوانب الحياة الاجتماعية والتي باتت تشهد انقلاب جذري، فعلى الصعيد الاقتصادي تحولات المعاملات المالية إلى الرقمية، وعلى الصعيد الحضري برزت المدن الذكية، وعلى صعيد العلاقات الانسانية تحولت إلى الافتراضي متجاوزة بذلك الحدود الجغرافية ومغيرة مفهوم العلاقات التقليدية.. إلخ.

هذه المعطيات، تصب جميعها في دائرة الإعلاء من شأن أهمية حقل علم الاجتماع وتبرز المزيد من الحاجة إليه على الصعيدين المهني (التطبيقي) والأكاديمي.

سادسا. المراجع المعتمدة في المحاضرة

1. عبد الله محمد عبد الرحمن: **علم الاجتماع: النشأة والتطور**، دار المعرفة الجامعية، الإسكندرية، 2007.
2. البياتي فراس عباس فاضل: **علم الاجتماع: دراسة تحليلية للنشأة والتطور**، دار غيداء للنشر والتوزيع، عمان، 2007.
3. عبد الهادي محمد والي: **المدخل إلى علم الاجتماع**،
4. جميل حمداوي: **أسس علم الاجتماع**، الطبعة الأولى، 2015.
5. نجلاء عبد الحميد راتب: **مدخل إلى علم الاجتماع**، جامعة بنها.